

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الثقافة

شريعة ← طريقة ← حقيقة

EXOTERISME → MESOTERISME → ESOTERISME

تستوجب الأسباب المحفزة على الطبعة الرابعة للملتقى الدولي " تصوف - ثقافة - موسيقى " مسوغاتها في الحاجة العاجلة و الشرعية التي يشعر بها الباحثون المتفرغون للدراسات الصوفية إلى ضرورة الاستثمار الأمثل لحقل اختصاصهم و وجوب إعادة صياغة مقاربتهم التي يظهر و كأنها تعجز، لدى احتكاكها مع بعض الاختصاصات، عن الاختراق الفعال لظاهره تفلت عناصرها من سطحية الأدوات الزهيدة و المتجاوزة التي يوسع علم الاجتماع التطبيقي توفيرها لنا. دون أن ننسى مخاطر التهور و ربما التوجيه الإيديولوجي التي هي من صميم بعض ممارسات العلوم السياسية التي قد تكون اعتباطية و إن هي اتسمت بالبراءة و التي قد نعرض لها موضوع بحثنا من غير إرادة و لكن بكل خطورة. شعوراً منا برهانات البحث العلمي نلتزم بأن تكون الطبعة المقبلة قفزة نوعية على الطريق القابل للإنقاذ و الفائق الاشتراط للعلوم الإنسانية على وجه العموم و لعلم الأنثربولوجيا على وجه الخصوص ما من شأنه أن يغرس بثبات و استمرار منطق الموضوعية، يشخص قواعد الاستعراض و يرسم حدود التعدد الاختصاصي مثلما يقره الاستحقاق الأكاديمي للمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ و يقتضيه واجب النقد الذاتي.

يتهيكل قالب العمل المرتقب لملتقانا حول ثلاثة محاور أسوة بمدارج التقين الصوفي في الإسلام الذي يجتاز سلما عموديا تناظلي الاستقامة طبقاً لمعايير قوة القصور الذاتي الذي يستند إليه قانون الحركة. يخترق هذا المسار ثلاثة مستويات للفهم، يستغرق ثلاثة أزمنة من الوقت و يقيم بثلاث مواضع مرتبطة بموقع اللطائف الثلاث : العقل، النفس و الروح. بينما و على عكس العلوم النقلية فإن التصوف علم لدني من غير الممكن تحصيله اللهم سوى عن طريق الأحوال و الفيوضات المنبثقة عن حضرة الlahوت و بتعبئة طاقة الالتفاق الكامنة في عالم الناسوت. ما يؤدي بالمريد المبتدئ بالشروع في الاستيعاب الحرفي أي الأساسي لنصوص و قوانين الشريعة حتى يتمكن هذا الأخير من استشفاف روح التنظيمات الإلهية بفضل التجربة الكشفية المباشرة لهذا الفن الرباني الذي ينسبك في الترويض الصارم للأعضاء، للحواس و المشاعر بالمواظبة على ممارسة الذكر و مجاهدة أهواء النفس و أوهام العقل في إطار آداب الطريق إلى أن يتمكن من بلوغ مرتبة التأهيل الاستباطي المحكم و الحديسي للحقيقة التي هي ثمرة التأويل. عندئذ يصير السالك قادراً على فك مقاصد الشريعة مزوداً في فهمه بالاندفادات الإلهامية إلى أن يصير جاهزاً لمقاييس المفعول النفسي للظاهرة البصرية الوارد ذكرها في القرآن الكريم : " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ " (سورة النمل - آية ٨٨) ينتظم هذا المسار الكمالى حسب الترتيب الآتى :

الدرجة الأولى هي درجة الشريعة المقابلة لمقام الإسلام و هي منسقة لقابلية الإدراك العقلي. يتمثل مقصدها الأولى في تزويد المريد بالنجيزة الدينية التي هي بمثابة الأداة التعليمية التي لا مناص له منها و التي على صوتها يتدرّب على حفظ الأوامر و النواهي في حدود الفطرة و الاعتدال و التي من شأنها أن تمكّنه من الترقي التدريجي لغاية تحقيق الانقلاب الشامل في ذاته و نفسه بفعل الاستبطان الحيوي لمعاني النصوص المقدسة و الوصول في نهاية المطاف إلى مقام الكشف و الإشراق.

الدرجة الثانية هي درجة البرزخ الفاصل المرموز له بقناة الارتباط أو الطريقة المقابلة لمقام الإيمان. وظيفتها تكمن في تزويد المريد العازم على السير إلى الهوية بإمكانية تمحيصه وجدانيا ما أدركه عقليا خلال دور الشريعة و مده وبالتالي بركيزة استطلاعية لترقيه الروحي. يتعلّق الأمر هنا بقابلية الإدراك الذوقي.

الدرجة الثالثة هي درجة الحقيقة الموافقة لقابلية الإدراك الكشفي و المقابلة لمقام الإحسان. تتيح للصوفي، الذي بلغ مقام الاستعداد للرجوع عن الباطل و الإقبال على الحق، ملكة المغادرة لحالة السكر الوجودي و التململ العقيم يعني ترك ما يعرف بمقام التلوين إلى مقام التمكين بـمأمولية العودة النهائية إلى حالة التوازن التام المشار إليه في القرآن الكريم بالصراط المستقيم التي تتيح للإنسان القدرة على الوقوف بثبات في حالة من القيمة الأبدية.

يفترض أننا نستقبل بترحاب كافة مواضع البحث و التدقيق التي من شأنها توفير التأثير الفكري العام لكل محور من المحاور الثلاثة مع إعطاء الأسبقية لذاك التي تتيح استقصاداً أدق لإشكاليتنا التي تختزل في تساؤل جوهري يستقصي المعنى الأنثربولوجي للعزم الصوفي. بيد أننا نود التركيز أساساً على وقع سير السلوك على الفرد كما على الكون، في الحاضر و الماضي، و ذلك من خلال اجتياز الثلاثية سابقة الذكر "شريعة - طريقة - حقيقة" المشكلة لهذه التركيبة الحيوية مع محاولة استخلاص كيفيات العمل، آليات الانتقال و شروط اجتياز مختلف الحقب المرحلية التي يتطلبها التدرج الصوفي و كذا استنتاج الوسائل، المناهج و المفاهيم الكفيلة بتحليل هذه الظاهرة.

شاء الحظ أن تتعقد طبعتنا القادمة في غضون ٩، ١٠ و ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ بمحروسة الجزائر، المدينة المعلنة هذا العام "عاصمة للثقافة العربية". من زمان تعد الجزائر، قبة الإسلام و حورية البحر الأبيض المتوسط، قلعة الصوفية و بستان الأولياء. تحظى هذه اللبوة، المحدقة في البحر بأعين من لهب دون أن يرمش لها جفن، بالحماية الأبدية لوليها الصالح سيدى عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (٨٧٥-٧٨٦) المنحدر من سلالة شهيد الإيمان جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار، بن عم النبي و الشقيق الأكبر للإمام علي. يذكر أن الجد الهاشمي الذي ينحدر منه حامي الجزائر كان أول سفير للإسلام إلى نجاشي الحبشة الموحد أشرمه بن أبجر. الروايات تلقبه بـذى الجناحين كنالية عن قطع يديه و استبدالهما له من الله بـجناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء. جرت، كما هو معلوم، أحداث هذه الواقعية خلال غزوة

يجسد السليل الجزائري لبطل الإسلام هذا، الملقب بغرير الجنة و صقر بنى طالب، بحق الإنسان الكامل مثلث الأبعاد، من قد اجتاز مراحل التأهيل الصوفي الثلاث ما دام قد قام بوظيفة الإرشاد الروحي لعلوم سكان المحروسة فضلا عن تلقينه قواعد الحكم الإلهية، النظرية منها و التطبيقية، لأعداد معتبرة من عيال الجزائر من الجنسين. كما أنه ولـى قضاء المدينة، على غير رضا منه قبل أن يخلع نفسه، مثـلـما قـام بـتحـرـيرـ أكثرـ منـ ٩٠ـ مؤـلـفاـ فيـ الشـرـيـعـةـ وـ الـحـقـيقـةـ، وـ الـتيـ منـ ضـمـنـهاـ الجوـاهـرـ الحـسـانـ فيـ تـقـسيـرـ القرآنـ،ـ بينـ فيـ مـعـظـمـهاـ،ـ لـعـلـمـاءـ الـظـاهـرـ منـ فـقـهـاءـ الـمـالـكـيـةـ،ـ أـنـ التـصـوـفـ يـنـبـنيـ عـلـىـ كـتـابـ اللهـ وـ سـنـةـ رـسـولـ اللهـ،ـ مـسـتـدـلاـ بـذـلـكـ عـلـىـ الـأـصـوـلـ الـإـسـلـامـيـةـ لـهـذـاـ إـرـثـ الـمـحـمـدـيـ.

وـ كـأـنـ القـبـةـ الثـمـانـيـةـ الـأـضـلـاعـ،ـ الـتـيـ رـفـعـهـ الدـايـ حاجـ أـحـمـدـ سـنـةـ ١١٠٨ـ هـجـريـ (١٦٩٦ـ مـسـيـحـيـ)ـ فـوـقـ ضـرـيـحـ قـهـرـمـانـ الـجـزـائـرـ وـ الـتـيـ يـعـلـوـهـاـ سـنـجـقـ الـوـلـاـيـةـ الـمـوـشـىـ بـالـهـلـالـ وـ الـنـجـمـةـ،ـ تـرـمـزـ إـلـىـ شـرـائـطـ التـصـوـفـ الثـمـانـيـةـ.ـ كـذـلـكـ يـتـبـعـ يـوـغـيـةـ الـهـنـدـ وـ الـيـابـانـ نـظـامـاـ تـأـمـلـيـاـ مـكـوـنـاـ مـنـ ثـمـانـيـ قـوـاـعـدـ أـسـاسـيـةـ قـصـدـ تـحـقـيقـ الـانـعـاـقـ وـ الـوـصـوـلـ إـلـىـ مـقـامـ الـيـقـظـةـ.ـ بـدـورـهـ يـوـصـيـ الـقـدـيسـ سـمـعـانـ (١٠٢٢ـ٩٤٩ـ)ـ الـمـبـتـدـئـيـنـ مـنـ بـيـنـ الـمـسـيـحـيـيـنـ الـمـقـبـلـيـنـ عـلـىـ سـلـوكـ نـهـجـ السـكـيـنـةـ بـتـطـبـيقـ ثـمـانـيـ شـعـائـرـ تـأـمـلـيـةـ.ـ أـلـيـسـ فـيـ هـذـاـ مـثـالـاـ شـاهـداـ بـحـسـبـانـ عـلـىـ الـمـصـيـرـ الـمـشـترـكـ لـلـمـسـالـكـ الـرـوـحـيـةـ الـكـوـنـيـةـ؟

انطلاقا من روضته الخضراء، المعبة بأريج المسك العربي و المرشوحة بالحناء، الواقعة في أعلى الربوة المطلة على فنار البحريـةـ فيـ قـلـبـ القـصـبةـ الـتـيـ لاـ تـقـهـرـ،ـ لـاـ زـالـتـ نـبرـاتـ الصـوتـ العـذـبـ الـوـدـودـ لـحـارـسـ جـزـائـرـ بـنـيـ مـزـغـنـةـ يـتـرـدـدـ فـيـ أـفـنـدـةـ جـمـيعـ الـعـاصـمـيـنـ أـكـانـواـ مـنـ السـكـانـ الـأـصـلـيـنـ أوـ مـنـ الـوـافـدـيـنـ مـاـ دـامـ الـوـاـصـلـوـنـ الـجـدـ مـؤـهـلـيـنـ لـفـكـ رـمـوزـ الـمـعـنـىـ وـ الـاقـدـاءـ بـآـدـابـ الـحـضـرـةـ.ـ كـمـاـ تـوـصـيـنـاـ الـذـبـبـاتـ الـآـمـنـةـ لـهـذـاـ الصـوتـ الـمـلـائـكـيـ الـذـيـ يـرـتـجـ لـهـ إـلـىـ الـيـوـمـ هـذـاـ المـقـامـ الـعـالـيـ الـمـكـرـسـ لـلـعـبـادـةـ وـ السـكـيـنـةـ بـالـامـتـنـاعـ عـنـ تـورـيـثـ الـأـحـقـادـ وـ لـتـبـلـغـنـاـ أـنـ حـبـ الـقـرـبـىـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـقـطـعـ وـ أـنـ الـكـراـهـيـةـ لـاـ يـمـكـنـهاـ أـنـ تـشـفـيـ بـالـكـراـهـيـةـ وـ إـنـماـ بـالـمـحـبـةـ وـ الـتـسـامـحـ.ـ حـتـىـ أـنـ الـغـرـيـبـ،ـ عـابـرـ السـبـيلـ،ـ الـأـرـملـةـ،ـ الـيـتـيمـ،ـ الـمـحـتـاجـ،ـ الـمـضـطـهـدـ،ـ الـمـرـيـضـ،ـ الـمـعـتوـهـ،ـ الـمـنـبـودـ،ـ الـمـشـرـدـ،ـ بـلـ وـ حـتـىـ الـمـطـارـدـ وـ الـهـارـبـ مـنـ الـقـانـونـ وـ كـلـ مـنـ لـمـ يـجـدـ لـفـسـهـ رـكـنـاـ يـأـوـيـهـ كـانـ بـإـمـكـانـهـ أـنـ يـلـجـأـ إـلـىـ قـدـسـ أـقـدـاسـ التـصـوـفـ الـعـاصـمـيـ هـرـبـاـ مـنـ جـحـيمـ الـبـشـرـ وـ اـسـتـنـنـاسـ بـالـبـرـكـةـ الـصـادـرةـ عـنـهـ.ـ يـكـفيـ أـنـ يـنـطـقـ قـاصـدـ الـمـقـامـ الـشـرـيفـ،ـ لـدـىـ مـثـولـهـ أـمـامـ الـبـابـ الـعـالـيـ،ـ بـعـارـةـ "ـشـرـعـ اللهـ !ـ"ـ هـيـ ذـيـ إـحدـىـ الـمـرـمـوزـاتـ الـمـعـضـلـةـ الـتـيـ تـقـرـحـ الـجـزـائـرـ،ـ الـمـدـيـنـةـ الـمـجـنـوـبـةـ.ـ الـمـسـتـورـةـ بـكـبـرـيـاءـ فـيـ حـرـائـرـ حـائـكـ نـورـهـ الـأـبـيـضـ وـ الـمـكـحـلـةـ عـيـونـهـاـ بـإـثـمـ الـعـرـفـانـ الـأـدـعـجـ وـ الـمـكـلـلـةـ بـخـيـطـ رـوـحـهـ الـعـسـجـدـيـ.ـ إـيـحـاءـهـاـ بـخـصـوصـ عـدـ أـبـوـابـ الـجـنـةـ الـثـمـانـيـةـ وـ عـدـ أـبـوـابـ النـارـ السـبـعـةـ حـسـبـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ.ـ عـسـىـ أـنـ يـكـونـ الـبـابـ الـثـامـنـ ذـاكـ الـذـيـ "ـبـاطـئـنـ فـيـ الرـحـمـةـ وـ ظـاهـرـهـ مـنـ قـبـلـهـ الـعـدـابـ"ـ (ـسـوـرـةـ الـحـدـيدـ -ـ آـيـةـ ١٣ـ)ـ؟

وجه آخر من أكرم وجوه التصوف ينير سماء البهجة العتيقة التي تحظى باحتضان أحد الضريحين الشريفين المنسوبين لمجدد السجادة الخلوتية و سلطان الطريقة الرحمانية، الجامع بين الشريعة و الحقيقة، المرابط سيدى محمد بن عبد الرحمن القشطولي الزواوي الأزهري ١٧١٥ / ١٧٩٣ المدعو بحمر اللحية بو قبرين بسبب الكرامة التي يروى أنها وقعت له عقب وفاته و التي أدت إلى تضاعفه إلى جثمانين. هو هذا سعد أزهر للاحتقاء معاً بذكرى من قد أرسى قواعد أحدي أفحى الطرق وأدقها انتظاماً من بين الأربعين طريقة صوفية التي تحتسبها الجزائر. من قد رسم قواعد الخلوة، انطلاقاً من مسقط رأسه بالقبائل قبل أن ينزل به المقام إلى العاصمة المحروسة ، جاعلاً من هذه الشعيرة المحمدية شرطاً مسبقاً لبلوغ الفتح الأكبر. نصبو لأن يكون هذا الموعد التاريخي محفلاً جاماً لكافة فروع هذه الطريقة الحليلة القدر، المتواجدة عبر كامل أرض الإسلام و الموصولة جغرافياً من آسيا الوسطى إلى إفريقيا الشمالية.

مرحباً بكم في الجزائر، عاصمة التصوف.

د. زعيم خنشلاوي
المنسق العلمي للملتقى